

# مجموعة القصص الدينية

٢٠

بإشراف  
مُحَمَّدُ أَحْمَدُ بَرَاق

## جذع العايز

الطبعة الحادية عشرة



دار المعارف





مُنذُ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِمِائَةِ سَنَةٍ، كَانَ فِي مِصْرَ رَجُلٌ عَظِيمٌ  
وَعَالِمٌ جَلِيلٌ، اسْمُهُ: « الشَّيْخُ عَزُّ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ ». .  
وَقَدْ وَهَبَ اللَّهُ لَهُذَا الرَّجُلِ ذَكَاءَ مُتَمَازًا، وَعَقْلًا كَبِيرًا،  
وَنَفْسًا طَيِّبَةً كَرِيمَةً، وَخُلُقًا فَاضِلًا. وَعَرَفَ النَّاسُ فِيهِ هَذِهِ  
الْمَوَاهِبَ وَالصِّفَاتِ مُنذُ أَنْ كَانَ صَغِيرًا، فَأَحْبَبُوهُ حُبًّا شَدِيدًا  
كَمَا يُحِبُّونَ أَنْفُسَهُمْ، وَأَخَذُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ نَظْرَةً كُلِّهَا  
إِكْبَارًا وَإِعْجَابًا. وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ الْعَظِيمُ يَعِيشُ أَوَّلًا فِي  
دِمَشْقَ عَاصِمَةِ بِلَادِ الشَّامِ، وَلَبِثَ بِهَا زَمَانًا طَوِيلًا؛ ثُمَّ انْتَقَلَ  
مِنْهَا إِلَى مِصْرَ، وَاسْتَوطنَ الْقَاهِرَةَ. وَكَانَ ذَلِكَ بِسَبَبِ خِلافٍ  
وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَلِكِ دِمَشْقَ. وَكَانَ يُحِبُّ الْعِلْمَ مُنذُ صِغَرِهِ،  
فَوَاطَبَ عَلَى طَلْبِهِ، وَدَأَّبَ عَلَى تَحْصِيلِهِ وَفَهْمِهِ، وَقَرَأَ كَثِيرًا مِنْ  
الْكِتَابِ الدِّينِيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَتَتَمَذَّذَ لِبَعْضِ أَفْضَلِ الْعُلَمَاءِ فِي  
زَمَانِهِ، حَتَّى صَارَ فَقِيهًا لَا مِثِيلَ لَهُ، وَعَالِمًا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْبَنَانِ.

وَلَمَّا امْتَلَأَ قَلْبُهُ عِلْمًا وَمَعْرِفَةً ، اَزْدَادَ فَهْمًا لِحَقِيقَةِ الْحَيَاةِ  
وَأَصْبَحَتْ آرَاؤُهُ حَكِيمَةً ، وَأَفْكَارُهُ صَابِئَةً ، وَأَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ  
يَنْفَعُهُمْ بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ ، وَآرَائِهِ وَأَفْكَارِهِ .

وَسَمِعَ النَّاسُ بِهِ فِي دِمَشْقَ وَعِغْرَهَا ، وَانْتَشَرَ خَبْرُهُ بَيْنَهُمْ  
فَامْتَلَأُوا بِالشَّوْقِ إِلَى رُؤْيَتِهِ ، وَالتَّيْمَنِ بِطَلْعَتِهِ ، وَالْإِنْتِفَاعِ  
بِبَرَكَتِهِ . فَكَانُوا يَفِدُونَ عَلَيْهِ فُرَادَى وَجَمَاعَاتٍ ، لِكَيْ  
يَسْتَفِيدُوا مِنْ عِلْمِهِ وَأَدَبِهِ ، وَيَسْتَوْضِحُّوهُ مَا غَمَضَ عَلَيْهِمْ  
مِنْ أُمُورِ دِينِهِمْ ، وَمَا أَنْبَهَمَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَحْوَالِ عَقَائِدِهِمْ ،  
وَمَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ شُؤْنِ حَيَاتِهِمْ .

وَقَدْ أَعْجَبَهُمْ مِنْهُ زُهْدُهُ فِي الدُّنْيَا وَزَخَارِفُهَا الْكَاذِبَةُ  
الْخَادِعَةُ ، وَآمَالُهَا الْبَرَاقَةُ الْخَلَابَةُ ؛ كَمَا أَعْجَبَهُمْ مِنْهُ أَيْضًا  
تَمَسُّكُهُ بِالْحَقِّ وَدَعْوَتُهُ إِلَى مُرَاعَاةِ الْعَدْلِ وَحَثُّهُ لَهُمْ عَلَى  
التَّعَاوُنِ وَالتَّأَلُّفِ وَالْمُودَّةِ وَاتِّبَاعِ تَعَالِيمِ الدِّينِ الْقَوِيمِ .

وَقَدْ اتَّجَهَتْ نَفْسُهُ الطَّيِّبَةُ إِلَى إِصْلَاحِ حَالِ النَّاسِ وَخُصُوصًا  
أَنَّهُ رَأَى مَا يَتَقَلَّبُونَ فِيهِ مِنَ الشَّقَاءِ وَمَا يُحِيطُ بِهِمْ مِنَ الْآلَامِ

وَصَارَ يَتَأَلَّمُ لآلَامِهِمْ ، وَيَحْزَنُ لِحُزْنِهِمْ ، وَيَشْقَى لِشِقَائِهِمْ .  
وَعَاهَدَ نَفْسَهُ أَمَامَ اللَّهِ ، أَنْ يَعِيشَ لَهُمْ ، وَأَنْ يَهَبَ حَيَاتَهُ  
لِهِدَايَتِهِمْ ، وَالتَّخْفِيفِ مِنَ آلَامِهِمْ وَشِقَائِهِمْ كُلَّمَا سَاعَدْتَهُ  
الْفُرْصُ ، وَعَاوَنْتَهُ ظُرُوفُ الْأَيَّامِ . كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَبَبًا فِي  
تَعَلُّقِ النَّاسِ بِهِ ، وَالتَّفَافِهِمْ مِنْ حَوْلِهِ ، وَسَمَاعِهِمْ لِمَشُورَتِهِ ،  
وَتَعْصِبِهِمْ لِرَأْيِهِ ، وَاسْتِجَابَتِهِمْ لِنِدَائِهِ ، وَتَنْفِيزِهِمْ لِأَوَامِرِهِ ،  
مَهْمَا لَاقَوْا فِي سَبِيلِهَا مِنْ مَشَقَّةٍ أَوْ أَصَابِهِمْ مِنْ أَلَمٍ .

وَتَتَابَعَتِ الْأَيَّامُ وَتَوَالَتِ الْأَعْوَامُ ، وَالشَّيْخُ «عِزُّ الدِّينِ»  
يَزْدَادُ عِنْدَ النَّاسِ مَحَبَّةً وَجَاهًا ، وَتَرْتَفِعُ مَنْزِلَتُهُ ، وَتَسْمُو  
مَكَانَتُهُ ، وَيَتَسَّعُ مُقَوِّدُهُ وَسُلْطَانُهُ ، وَيُنْقَادُ النَّاسُ لِآرَائِهِ .  
وَكَانَ يُجْلِسُ فِي بَعْضِ الْمَسَاجِدِ بِدِمَشْقَ ، لِيُعَلِّمَ النَّاسَ  
أُمُورَ دِينِهِمْ ، وَيَهْدِيَهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ ، وَيَهْدُبُ أَخْلَاقَهُمْ  
وَيَدْعُوهُمْ إِلَى الْمَحَبَّةِ وَالتَّعَاوُنِ ، وَيَنْصَحُهُمْ بِالْعَمَلِ الطَّيِّبِ ،  
وَالِابْتِعَادِ عَنِ الشَّرِّ وَالظُّلْمِ ، وَأَنْ يُعَامَلَ بَعْضُهُمُ الْبَعْضَ الْآخَرَ  
مُعَامَلَةً حَسَنَةً ، وَأَنْ يُحِبَّ كُلُّ مَنْهُمْ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ،

لِكَيْ يَسْمَعُوا جَمِيعًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَقَدْ اَزْدَادَ مَحَبُّو الشَّيْخِ «عِزِّ الدِّينِ» وَكَثُرَ أَتْبَاعُهُ وَمُرِيدُوهُ  
وَأَمَّا تَلَامِيذُهُ فَقَدْ أَصْبَحُوا لَا يُحْصَوْنَ عَدًّا . وَصَارَ أَفْضَلَ عَالِمٍ  
فِي زَمَانِهِ ، فَسَمَّاهُ أَحَدُ تَلَامِيذِهِ «سُلْطَانَ الْعُلَمَاءِ» .

وَلَمَّا رَأَى مُلُوكُ زَمَانِهِ وَأَمْرَاءُ عَصْرِهِ أَنَّ النَّاسَ أَصْبَحُوا  
يُحِبُّونَ الشَّيْخَ «عِزِّ الدِّينِ» وَيَتَّبِعُونَ آرَاءَهُ ، وَيَنْقَادُونَ  
لِمَشُورَتِهِ ، وَيَطْلُبُونَ مِنْهُ النَّصِيحَةَ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ حَيَاتِهِمْ  
أَصْبَحُوا يَخَافُونَهُ عَلَى مُلِكِهِمْ ، وَيَخْشَوْنَ نُفُودَهُ بَيْنَ رِعَايَاهُمْ  
وَيَعْمَلُونَ حِسَابَهُ فِي كُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُونَهَا ، وَفِي كُلِّ مَشْرُوعٍ  
يَقُومُونَ بِهِ ؛ وَصَارَ بَعْضُهُمْ يَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ طَلِبًا لِمَشُورَتِهِ ، وَرَغْبَةً  
فِي نَصِيحَتِهِ ، حَتَّى لَا يُشِيرَ عَلَيْهِ النَّاسُ ، وَيُهَيِّجَ ضِدَّهُ الْعَامَّةُ ،  
وَيُحَرِّضَ الرَّعِيَّةَ . وَكَانَ كُلُّ مَنْهُمْ يَحْتَمِدُ فِي أَنْ يَتَبَاعَدَ عَنِ الشَّرِّ ،  
وَيَتَجَنَّبَ الظُّلْمَ ، حَتَّى لَا يَغْضَبَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ ، لِأَنَّهُ كَانَ عَدُوًّا  
لِلظَّالِمِينَ ، وَلَوْ كَانُوا أَضْعَمَ مُلُوكِ الْأَرْضِ قُوَّةً وَسُلْطَانًا .  
وَلَمْ يَذْهَبْ عَنْهُمْ الْخَوْفُ مِنَ الشَّيْخِ ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ مَاتَ .

حَتَّى لَقَدْ قَالَ مَلِكٌ مُصْرَ حِينَ ذَاكَ ، لَمَّا عَرَفَ بِيُوفَاةِ الشَّيْخِ :  
« مَا اسْتَقَرَّ مُلْكِي إِلَّا الْآنَ » .

وَأَقْبَلَ بَعْضُ الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ عَلَى « سُلْطَانِ الْعُلَمَاءِ » يَرْضُونَ  
عَلَيْهِ مُشْكِلَاتِ دَوْلِهِمْ ، وَالْأُمُورَ الشَّائِكَةَ الْمُسْتَعْصِيَةَ عَلَيْهِمْ  
لِيَأْخُذُوا فِيهَا رَأْيَهُ ، وَيَسْتَظْلِعُوا مَشُورَتَهُ . فَكَانَ دَائِمًا  
يَبْذُلُ لَهُمُ الرَّأْيَ النَّافِعَ ، وَالتَّصِيحَةَ الْمُخْلِصَةَ ، وَالْمَشُورَةَ الْأَمِينَةَ ؛  
وَهُوَ لَا يَطْلُبُ لِنَفْسِهِ مِنْ وِرَاءِ ذَلِكَ غَنِيمَةً يَغْتَنِمُهَا ، أَوْ  
أَجْرًا يَنْتَفِعُ بِهِ ، وَلَا يَطْمَعُ مِنْهُمْ فِي جَاهٍ أَوْ مَالٍ أَوْ وَظِيفَةٍ .  
وَإِذَا جَاءَ يَرْجُوهُ الْمَرْءُ لِنَفْسِهِ بَعْدَ أَنْ يُصْبِحَ وَجِهًا عِنْدَ  
اللَّهِ وَالنَّاسِ ، بِسَبَبِ صِدْقِ دِينِهِ وَقُوَّةِ يَقِينِهِ ، وَسُمُوِّ خُلُقِهِ وَسَعَةِ  
عِلْمِهِ ، وَنُبْلِ مَقْاصِدِهِ . . . !؟

غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ فِي دِمَشْقَ مَلِكٌ كَثِيرُ الظُّلْمِ ، لَا يُرَاعِي  
حُقُوقَ شَعْبِهِ ، وَلَا يَهْتَمُّ بِشُؤْنِ رَعِيَّتِهِ ، وَلَهُ مَارِبٌ شَخْصِيَّةٌ لَا  
يُبَالِي فِي سَبِيلِ الْوُصُولِ إِلَيْهَا بِأَنْ يُضْحَى بِمَصَالِحِ هَذِهِ الرِّعْيَةِ .  
وَقَدْ حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ الشَّرِيرَةُ أَنَّ يَتَّفِقَ مَعَ أَعْدَاءِ وَطْنِهِ ، ضِدَّ

مَصْلَحَةَ رَعِيَّتِهِ ، لِيَصِلَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ إِلَى بَعْضِ الْمَنَافِعِ الشَّخْصِيَّةِ .  
 وَكَانَ هَذَا الْمَلِكُ قَدْ وَكَّلَ إِلَى الشَّيْخِ « عَزَّ الدِّينِ » بَعْضَ  
 الْمَنَاصِبِ الْعَظِيمَةِ الْأَهْمِيَّةِ ، وَكَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ بِذَلِكَ أَنْ  
 يَمْلِكَ ضَمِيرَهُ ، وَيَشْتَرِيَ رِضَاهُ ، فَيَعْبَثُ مَا شَاءَ لَهُ الْعَبَثُ ،  
 وَيُفْسِدَ مَا أَرَادَ لَهُ الْفَسَادُ ، وَهُوَ آمِنٌ مِنْ مُوَآخَذَةِ الشَّيْخِ . .

وَلَكِنَّ الشَّيْخَ « عَزَّ الدِّينِ » كَانَ وَاقِفًا لِهَذَا الْمَلِكِ  
 بِالْمِرْصَادِ . وَحِينَمَا سَمِعَ بِظُلْمِهِ ، وَصَغْفِهِ أَمَامَ أَعْدَائِهِ ، وَاسْتِسْلَامِهِ  
 لَهُمْ ، وَتَفْرِيطِهِ فِي حُقُوقِ وَطَنِهِ وَرَعِيَّتِهِ هَالَهُ الْأَمْرُ ، وَذَهَبَ إِلَيْهِ  
 وَبَيَّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَعَاقِبَةَ تَصَرُّفِهِ ، وَقَدَّمَ إِلَيْهِ النَّصِيحَةَ خَالِصَةً  
 لَوَجْهِ اللَّهِ ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَكْفَ عَنْ ظُلْمِهِ ، وَيَرْعَوِيَ عَنْ  
 غِيَّتِهِ ، وَيَتَجَنَّبَ التَّوَرُّطَ مَعَ أَعْدَاءِ بِلَادِهِ ، فِي اتِّفَاقٍ يَكُونُ  
 فِيهِ إِهْدَارٌ لِحُقُوقِ شَعْبِهِ ، وَعَبَثٌ بِمَصْلَحَةِ رَعِيَّتِهِ .

وَكَانَ هَذَا الْمَلِكُ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ ، طَائِشًا ، مَزْهُوًّا بِنَفْسِهِ  
 مَغْرُورًا بِسُلْطَانِهِ ، غَافِلًا عَنِ اللَّهِ . فَتَعَجَّبَ مِنْ أَمْرِ الشَّيْخِ ،  
 وَاعْتَبَرَ نَصِيحَتَهُ تَدْخُلًا مِنْهُ فِي شُؤْنِ الدَّوْلَةِ ، وَجُرْأَةً لَمْ يَكُنْ

يَتَوَقَّعُهَا مِنْهُ ، وَرَدَّهٗ مِنْ لُدْنَهٗ رَدًّا قَاسِيًا ، وَنَهَرَهُ ، وَطَلَبَ مِنْهُ  
عَدَمَ التَّحَدُّثِ فِي سِيَاسَتِهِ أَوْ التَّنْذِيرِ بِهَا ، وَهَدَّدَهُ بِأَنْ يَبْطِشَ  
بِهِ ، وَيَعْرِزَهُ عَنِ جَمِيعِ وَظَائِفِهِ .

وَلَكِنَّ الشَّيْخَ « عَزَّ الدِّينِ » هَزَأَ بِهِ وَسَخَرَ مِنْهُ ، وَذَهَبَ  
تَوًّا إِلَى الْمَسْجِدِ وَخَطَبَ فِي النَّاسِ خُطْبَةً طَوِيلَةً نَائِرَةً ، كَشَفَ  
عَنْ حَقِيقَةِ هَذَا الْمَلِكِ وَسَفَاهَتِهِ ، وَفَضَحَ فِيهَا سُوءَ تَصَرُّفَاتِهِ ،  
وَأَذَاعَ مُوَأْرَثَتَهُ صِدِّ وَطْنِهِ ، وَمُؤَافَقَتَهُ لِأَعْدَاءِ دِينِهِ .

وَبَلَغَ الْخَبْرَ مَسَامِعَ الْمَلِكِ ، فَاشْتَدَّ غَيْظُهُ ، وَاتَّقَدَّتْ نَفْسُهُ  
غَضَبًا ، وَعَزَلَ الشَّيْخَ عَنِ جَمِيعِ وَظَائِفِهِ وَأَمَرَ جُنُودَهُ وَأَعْوَانَهُ  
فَقَبِضُوا عَلَى الشَّيْخِ وَالْقُوَّةَ فِي غِيَابَةِ السَّجْنِ ، انْتِقَامًا مِنْهُ ،  
وَقَهْرًا لِنَفْسِهِ .

وَعَلِمَ أَهْلُ دِمَشْقَ بِذَلِكَ ، وَعَرَفُوا أَنَّ الشَّيْخَ الَّذِي كَانَ  
يُدَافِعُ عَنْ حُقُوقِهِمْ ، وَيُحَافِظُ عَلَى مَصَالِحِهِمْ ، وَيَسْعَى فِي رَدِّ  
الظُّلْمِ عَنْهُمْ ، كَانَ جَزَاؤُهُ السَّجْنَ الْمُظْلِمَ ، وَالْإِهَانَةَ الشَّدِيدَةَ  
فَنَارَتْ نَائِرَتُهُمْ ، وَامْتَلَأَتْ نُفُوسُهُمْ غَضَبًا وَحَقًّا ، عَلَى هَذَا

الْمَلِكِ الْجَائِرِ الْعَابِثِ ، وَأَخَذُوا يَتَدَبَّرُونَ فِيمَا يَنْهَمُ أَمْرَهُ .  
 وَيَنِمَا هُمْ فِي ذَلِكَ إِذْ أَطْلَقَ الْمَلِكُ سَرَاحَ الشَّيْخِ ، وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ  
 مِنْ سِجْنِهِ . وَكَانَتْ أَنْبَاءُ أَهْلِ دِمَشْقَ وَغَضِبِهِمْ عَلَيْهِ قَدْ وَصَلَتْ إِلَى  
 مَسَامِعِهِ ، فَخَشِيَ أَنْ تَكُونَ فِتْنَةً ، وَأَنْ يَكُونَ مِنْ وَرَائِهَا ضِيَاعٌ  
 مُلْكِيهِ ، وَاتَّقِضَاءَ دَوْلَتِهِ ، فَرَأَى أَنْ يَنْجُوَ مِنْهَا بِإِطْلَاقِ سَرَاحِ الشَّيْخِ .  
 وَكَانَ الْمَلِكُ يَظُنُّ أَنَّ الشَّيْخَ سَتَهْدَأُ مَا بَرَّئْتَهُ ، وَيَسْكُنُ  
 غَضَبَهُ ، بَعْدَ أَنْ اسْتَرَدَّ حُرِّيَّتَهُ ؛ وَلَكِنَّ الشَّيْخَ « عِزُّ الدِّينِ »  
 أَعْلَنَ لِلنَّاسِ بِأَنَّهُ سَيَرْحَلُ مِنْ دِمَشْقَ ، وَلَنْ يَبْقَى فِيهَا ، وَأَنَّهُ  
 لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْكُنَهَا مَا دَامَ فِيهَا هَذَا الْمَلِكُ الظَّالِمُ المَعْرُورُ .  
 وَلَمْ يَهْتَمَّ الشَّيْخُ « عِزُّ الدِّينِ » بِوِطَائِفِهِ الكَثِيرَةِ وَمَا  
 كَانَتْ تُدْرُهُ عَلَيْهِ مِنَ المَالِ ، وَتَهَيَّئَتْ لَهُ مِنَ الجَاهِ وَالسُّلْطَانِ ،  
 وَذَلِكَ لِأَنَّهُ رَجُلٌ لَا يُحِبُّ المَالَ ، وَلَا شَيْئًا مِنْ مُتَعِ هَذِهِ الحَيَاةِ  
 الزَّائِلَةِ ، وَلَا يَهْمُهُ مِنْ حَيَاتِهِ غَيْرَ أَنْ يَقُولَ الحَقَّ وَيُدَافِعَ عَنْهُ .  
 وَكَانَ كُلُّ يَوْمٍ يَمُرُّ بِزَيْدِهِ صَلَابَةً وَقُوَّةً فِي تَأْذِيَةِ رِسَالَتِهِ  
 وَحَمَلِ أَمَاتِهِ ، وَالذُّودِ عَنِ الحَقِّ وَالْعَدَالَةِ .

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ ، خَرَجَ الشَّيْخُ « عِزُّ الدِّينِ » مِنْ مَدِينَةِ  
 دِمَشْقَ ، قَاصِدًا الْبِلَادَ الْمِصْرِيَّةَ ، وَكَانَ أَهْلُ دِمَشْقَ قَدْ عَلِمُوا  
 بِمِعَادِ خُرُوجِهِ ، فَتَجَمَّهَرُوا مِنْ حَوْلِهِ يُودِّعُونَهُ وَدَاعًا حَارًّا ،  
 بَيْنَ أَسْفِ وَبُكَاءِ ، وَأَمَلٍ وَدُعَاءِ . وَسَارُوا مَعَهُ فِي الطَّرِيقِ  
 مَسَافَاتٍ بَعِيدَةً . وَكَانَ النَّاطِرُ إِلَى مَدِينَةِ دِمَشْقَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ  
 يَحْسَبُ أَنَّهَا قَدْ خَلَتْ مِنَ السَّكَّانِ .

رَأَى مَلِكُ دِمَشْقَ هَذَا الْوَدَاعَ لِلصَّادِقِ ، فَهَالَهُ أَمْرُهُ .  
 وَأَحَبَّ أَنْ يُعِيدَ الشَّيْخَ مِنَ الطَّرِيقِ بِوَسِيلَةٍ مِنَ الْوَسَائِلِ .  
 فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولًا يَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَعُودَ إِلَى دِمَشْقَ ، وَقَالَ لَهُ :  
 إِنَّ الْمَلِكََ مُسْتَعِدٌّ لِقَبُولِهِ بِهَا وَإِعَادَةِ وِظَائِفِهِ إِلَيْهِ ، إِذَا قَبَلَ  
 يَدَهُ وَاعْتَذَرَ عَمَّا بَدَرَ مِنْهُ فِي حَقِّهِ . . . فَضَحِكَ الشَّيْخُ  
 ضِحْكَةً الْهَازِي السَّاخِرِ الْمُتَعَجِّبِ ، وَقَالَ لِرَسُولِ الْمَلِكِ :  
 وَاللَّهِ يَا بَنِيَّ إِنِّي لَا أَقْبَلُ أَنْ يُقْبَلَ الْمَلِكُ رَجُلِي ، فَضَلًّا عَنْ أَنْ  
 أُقْبَلَ يَدَهُ . يَا قَوْمَ ! أَنْتُمْ فِي وَادٍ ، وَنَحْنُ فِي وَادٍ .

أَخَذَ الشَّيْخُ « عِزُّ الدِّينِ » طَرِيقَهُ نَحْوَ الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ ،  
 حَائِثًا مَطِيَّتَهُ عَلَى الرَّحِيلِ ، وَمُفَارَقَةَ دَوْلَةِ الظُّلْمِ . وَكَانَ فِي  
 أَثْنَاءِ رَحِيلِهِ يَبْلُغُ مَحَلَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، وَيَدْخُلُ بِلْدَةً بَعْدَ بِلْدَةٍ .  
 وَالنَّاسُ يَتَسَامَعُونَ بِهَجْرَتِهِ ، فَتَفِدُ إِلَيْهِ وَتَحْتَفِلُ بِقُدُومِهِ ،  
 وَتُرْحَبُ بِهِ ، وَتَتَبَرَّكُ بِطَلْعَتِهِ ، وَتَدْعُو لَهُ اللهُ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى  
 الْخَيْرِ ، وَتَلْعَنُ مَلِكََ دِمَشْقِ الشَّرِيرِ الظَّالِمِ .

وَمَا زَالَ الشَّيْخُ فِي رَحِيلِهِ ، حَتَّى بَلَغَ الْبِلَادَ الْمِصْرِيَّةَ وَدَخَلَ  
 عَاصِمَتَهَا الْقَاهِرَةَ ، فَفَرِحَ مَلِكُهَا الصَّالِحُ أَيُّوبُ بِهِ وَاسْتَبَشَرَ  
 بِقُدُومِهِ ، وَلَقِيَهُ أَحْسَنَ لِقَاءٍ وَأَحْفَلُهُ . وَجَعَلَهُ قَاضِيًا عَلَى جُزْءٍ  
 كَبِيرٍ مِنْ بِلَادِ مَمْلَكَتِهِ ، لِأَنَّهُ عَرَفَ فِيهِ الدَّقَّةَ فِي أَحْكَامِهِ ،  
 وَالْعَدَالَةَ فِي كُلِّ مَا يَفْصِلُ فِيهِ مِنَ الْقَضَايَا . وَاعْتَبَرَ قُدُومَهُ  
 إِلَى مِصْرٍ وَهَجْرَتَهُ إِلَيْهَا غُنْمًا لَهَا عَظِيمًا .  
 وَوَكَّلَ مَلِكَ مِصْرٍ إِلَيْهِ الْإِشْرَافَ عَلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ .

وَكَانَ يَنْتُ الْمَالِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ شَبِيهَاً بَوَازَرَةِ الْمَالِيَةِ فِي زَمَانِنَا .  
فَبَدَلَ الشَّيْخُ عِنَايَةً كُبْرَى فِي الْحَافِظَةِ عَلَيَّ يَنْتِ الْمَالِ ،  
حَتَّى لَا يَعْثَبَ بِهِ عَابَثٌ ، وَلَا يُفْسِدَ فِيهِ مُفْسِدٌ . وَأَخَذَ  
يَجْمَعُ الْأَمْوَالَ الْمُسْتَحَقَّةَ لِيَنْتِ الْمَالِ ، وَتَشَدُّ فِي طَلَبِ  
الْأَمْوَالِ الْمَتَأَخَّرَةِ لَهُ ، وَيُنْفِقُ مِنْهَا جَمِيعًا عَلَى مَصَالِحِ الرَّعِيَّةِ ،  
وَكَانَ حَرِيصًا كُلَّ الْحَرِصِ فِيمَا يَجْمَعُهُ وَفِيمَا يُنْفِقُهُ ، لَا يُفْرِطُ  
فِي كَثِيرَةٍ وَلَا قَلِيلَةٍ ، عَالِمًا أَنَّ هَذَا الْمَالَ أَمَانَةٌ أَلْقَاهَا اللَّهُ  
بَيْنَ يَدَيْهِ ، لِيَنْظُرَ مَا يَصْنَعُ فِيهَا ، وَأَنَّ اللَّهَ سَيَحَاسِبُهُ عَلَى  
تَصَرُّفَاتِهِ حِسَابًا عَسِيرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . فَإِنْ أَنْصَفَ وَعَدَلَ كَانَ  
جَزَاؤُهُ ثَوَابًا ، وَإِنْ جَارَ وَظَلَمَ كَانَ جَزَاؤُهُ عِقَابًا .

ثُمَّ إِنَّ الشَّيْخَ كَانَ لَا يَرَى أَنَّ وظيفته تَقِفُ بِهِ عِنْدَ النَّظَرِ  
فِي أُمُورِ الْقَضَاءِ ، وَالْحُكْمِ فِي الْقَضَايَا وَالْخُصُومَاتِ بَيْنَ  
النَّاسِ ، وَلَا تَقِفُ بِهِ عِنْدَ رِعَايَةِ يَنْتِ الْمَالِ وَالْحَرِصِ عَلَيْهِ ،  
وَالْإِنْفَاقِ مِنْهُ عَلَى مَصَالِحِ الرَّعِيَّةِ . وَلَكِنَّهُ كَانَ يَرَى أَنَّ فِي  
مُقَدِّمَةِ وَاجِبَاتِهِ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى السُّلْطَانِ بِالنَّصِيحَةِ الْخَالِصَةِ

كُلَّمَا سَنَحَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ ، وَحَانَتِ الْمُنَاسِبَةُ . فَيَحُضُّهُ عَلَى السَّهْرِ  
 عَلَى مَصَالِحِ الرَّعِيَّةِ ، وَمُحَارَبَةِ أَنْوَاعِ الْفَسَادِ الْمُنْتَشِرَةِ بَيْنَهَا ،  
 وَالْعَمَلِ عَلَى تَشْرِيعِ الْمَدْلِ وَإِزَالَةِ الظُّلْمِ وَمُسَاعَدَةِ الْمُحْتَاجِ .  
 وَأَخَذَ الشَّيْخُ يَتَقَدَّمُ بِنِصَائِحِهِ هَذِهِ إِلَى مَلِكِ مِصْرَ ، بِجُرْأَةٍ  
 نَادِرَةٍ وَصَرَاحَةٍ لَا خَفَاءَ فِيهَا ، وَشَجَاعَةٍ قَلَّمَا بَدَتْ مِنْ أَحَدٍ غَيْرِهِ .  
 وَفِي أَحَدِ أَيَّامِ الْأَعْيَادِ ، قَامَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ أَيُّوبُ مِنْ نَوْمِهِ  
 مُبَكَّرًا . فَظَهَرَ فِي أَحْسَنِ زِينَتِهِ ، وَارْتَدَى أَجْمَلَ حُلِيِّهِ  
 وَأَبْهَى مَلَابِسِهِ ، وَتَمَنَّقَ بِمِنْطَقَتِهِ ، وَعَلَّقَ سَيْفَهُ بِجَمَائِلِهِ ،  
 وَجَلَسَ فِي قَاعَةِ عَرْشِهِ ، لِيَسْتَقْبَلَ وَفُودَ الْمَهْنِيِّينَ بِالْعِيدِ السَّعِيدِ .  
 وَاجْتَمَعَ حَوْلَ الْمَلِكِ كِبَارُ الْأُمَرَاءِ مِنْ بَطَانَتِهِ ، وَعُظَمَاءُ  
 الرِّجَالِ مِنْ حَاشِيَتِهِ . وَكُلُّ مِنْهُمْ يَلْبَسُ أَزْهَى مَلَابِسِهِ وَأَبْهَاهَا ،  
 وَأَرْوَعَ حُلِيِّهِ وَأَزْهَاهَا ، مِمَّا يَبْهَرُ الْعْيُونَ وَيَخْطِفُ الْأَبْصَارَ .  
 وَحَوْلَهُمُ الْحَرَسُ وَالْجُنُودُ وَأَسْلِحَتُهُمْ مَوْفُورَةٌ مُرْهَفَةٌ لَامِعَةٌ .  
 ثُمَّ أَخَذَ أُمَرَاءُ الدَّوْلَةِ يَفِيدُونَ عَلَى الْمَلِكِ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ ، وَيُودُّونَ  
 لَهُ فَرِيضَةَ التَّهْنِئَةِ وَالتَّبْرِيكِ يَوْمَ الْعِيدِ . وَيُظْهِرُونَ مَا تَكُنُّهُ

قُلُوبِهِمْ لَهُ مِنَ الْوَلَاءِ، وَمَا تُضْمِرُهُ نُفُوسُهُمْ مِنَ الْمَوَدَّةِ وَالطَّاعَةِ .  
 وَيَدْمًا كَانَ الْمَلِكُ فِي كَمَالِ أُبْهَتِهِ، وَالْحَفْلُ مُكْتَمِلٌ، وَالْمَكَانُ  
 حَاشِدٌ، وَكِبَارُ الْأُمَرَاءِ وَاقِفُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَعْيَانُ الدَّوَلَةِ وَرُؤَسَاءُ  
 الدَّوَاوِينِ مَائِلُونَ أَمَامَهُ ، وَحَوْلَهُمْ وَقَفَ الْجُنُودُ فِي أَسْلِحَتِهِمْ  
 الْمَاضِيَةِ الْمَسْنُونَةِ - إِذْ بَرَزَ الشَّيْخُ « عِزُّ الدِّينِ » قَادِمًا إِلَى الْمَلِكِ  
 لِيُودِّيَ لَهُ فَرِيضَةَ التَّهْنِئَةِ ، وَيُبَارِكَ لَهُ فِي هَذَا الْعِيدِ .  
 وَقَفَ الشَّيْخُ عَلَى عَتَبَةِ الْبَابِ ، وَلَمْ يَتَحَرَّكَ ؛ وَتَرَقَّبَ  
 الْحَاضِرُونَ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى السُّلْطَانِ ، فَلَمْ يَتَقَدَّمْ . فَوَجَمُوا وَبُهْتُوا  
 وَتَعَجَّبُوا وَمَلَكَهُمُ الدَّهْشَةُ وَالْحَيْرَةُ، وَسَكَنُوا كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِهِمْ  
 الطَّيْرَ، وَتَوَقَّعُوا فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ أَمْرًا خَطِيرًا ، وَمُفَاجَأَةً رَائِعَةً ،  
 وَخُصُوصًا عِنْدَ مَا رَأَوْا الشَّيْخَ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ الْمَلِكِ وَيَتَفَرَّسُ  
 فِيهِ ثُمَّ لَا يَتَكَلَّمُ . . . فَلَمَّا شَعَرَ الشَّيْخُ بِتَطَلُّعِهِمْ إِلَيْهِ ،  
 وَاسْتِشْرَافِهِمْ لِحَدِيثِهِ ، وَتَشَوُّقِهِمْ إِلَى كَلَامِهِ نَظَرَ إِلَى الْمَلِكِ  
 نَظْرَةَ السَّاخِرِ ، وَحَدَّثَهُ حَدِيثَ الْمُهَدِّدِ الْمُتَوَعِّدِ قَائِلًا لَهُ :  
 « يَا أَيُّوبُ ! مَا حَجَّتْكَ عِنْدَ اللَّهِ إِذَا قَالَ لَكَ : أَلَمْ أَهَبْ

لَكَ مَلِكٌ مِصْرَ ، ثُمَّ تَبِيحُ الْخُمُورِ ؟»

فَقَالَ الْمَلِكُ : « هَلْ جَرَى ذَلِكَ !؟ »

قَالَ الشَّيْخُ : « نَعَمْ ! » ، وَأَخَذَ الشَّيْخُ يَذْكُرُ لِلْمَلِكِ  
الْأَمَاكِينَ الَّتِي يَتَعَاطَى النَّاسُ فِيهَا الْخُمُورَ ، وَالْأَمَاكِينَ الَّتِي  
يَكْتُرُ فِيهَا الْفَسَادُ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ ، وَتَنْتَشِرُ مِنْهَا الْمُؤَبِقَاتُ  
وَالْمُنْكَرَاتُ ، الَّتِي لَا يَرْضَى اللَّهُ عَنْهَا ، وَالَّتِي تُخَالِفُ تَعَالِيمَ  
الدِّينِ ، وَتَهْدِمُ بِنَاءَ الْوَطَنِ ، وَتُفْسِدُ حَالَ الرَّعِيَّةِ .

ثُمَّ قَالَ لَهُ : « كَيْفَ تَتْرُكُ رَعِيَّتَكَ هَكَذَا ، وَأَنْتَ تَتَقَلَّبُ  
فِي ثَوْبِ النِّعْمَةِ ، وَتَتَمَتَّعُ بِالْهُدُوءِ وَالطَّمَأْنِينَةِ فِي هَذِهِ  
الْمَمْلَكَةِ !؟ . إِنَّ أَقْلَ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَحْفَظَ الرَّعِيَّةَ مِنْ  
الْفَسَادِ ، وَتُحْمِيهَا مِنْ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ ، حَتَّى تَلْقَى اللَّهَ بِصَفْحَةٍ  
نَقِيَّةٍ طَاهِرَةٍ . وَإِنَّكَ إِذَا لَمْ تُحَارِبْ هَذِهِ الْمُؤَبِقَاتِ وَتَعْمَلَ عَلَى  
مُحْوَاهَا تُعْتَبَرُ رَاضِيًا عَنْهَا مُقْرًا لَهَا . . . »

فَقَالَ الْمَلِكُ : « إِنَّ هَذَا لَيْسَ جَدِيدًا فِي أَيَّامِي ، وَلَكِنَّهُ

كَانَ مِنْ أَيَّامِ أَبِي » .

فَقَالَ الشَّيْخُ فِي ثَوْرَةٍ وَغَضَبٍ : « هَلْ أَنْتَ مِنَ الدِّينِ  
 يُقَلِّدُونَ آبَاءَهُمْ ، وَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ! وَهَلْ  
 أَنْتَ مِنَ الدِّينِ يَقُولُونَ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ، وَإِنَّا عَلَى  
 آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ؟ »

فَقَالَ الْمَلِكُ : « لَا ! وَلَكِنِّي سَأَبْطُلُ هَذِهِ التُّنْكَرَاتِ  
 وَأَمْحُو هَذَا الْفَسَادَ . وَأَمَرَ الْمَلِكُ مِنْ فَوْرِهِ بِإِبْطَالِهَا . وَأَرْسَلَ  
 جُنُودَهُ إِلَى أَمَاكِينِهَا لِإِقْفَالِهَا ، وَأَصْدَرَ مَرَّاسِيمَهُ بِإِزَالَتِهَا وَمَحْوِهَا  
 وَمُعَاقِبَةِ مُرْتَكِبِيهَا .

وَهَكَذَا أَطَاعَ الْمَلِكُ نَصِيحَةَ الشَّيْخِ ، وَهَكَذَا أَيْضًا كَانَ  
 الشَّيْخُ سَبَبًا فِي صَلَاحِ الْمَلِكِ ، وَحِمَايَةِ الرَّعِيَّةِ مِنْ انْتِشَارِ  
 الْأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ وَالْعَادَاتِ الضَّارَّةِ فِيهَا ، وَسَبَبًا فِي الْمُحَافَظَةِ  
 عَلَى أَمْوَالِهَا وَزَمَنِهَا مِنَ الضِّيَاعِ فِيمَا لَا يُفِيدُ وَلَا يَنْفَعُ ، بَلْ فِيمَا  
 يَضُرُّ وَيُؤْذِي . وَشَاعَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَعَرَفُوا  
 نَتِيجَةَ هَذِهِ الْمَجَادَلَةِ بَيْنَ الشَّيْخِ وَالْمَلِكِ ، فَسَرُّوا بِهَا سُرُورًا  
 عَظِيمًا ، وَعَجِبُوا مِنْ جُرْأَةِ الشَّيْخِ عَلَى الْمَلِكِ وَصَلَاتِهِ فِي

الدَّفَاعِ عَنْ رَأْيِهِ وَدَعْوَتِهِ إِلَى الْحَقِّ، خُصُوصًا فِي زَمَنِهِمْ هَذَا الَّذِي  
 كَانَ السَّلَاطِينَ وَالْأُمَرَاءَ مُسْتَبِدِّينَ فِيهِ بِالرَّعِيَّةِ غَايَةَ الْأَسْتِبْدَادِ .  
 وَتَقَدَّمَ إِلَى الشَّيْخِ ، أَحَدُ تَلَامِيذِهِ الْمُعْجَبِينَ بِهِ ، وَسَأَلَهُ  
 عَنِ الدَّاعِي الَّذِي دَعَاهُ إِلَى مُخَاطَبَةِ الْمَلِكِ بِهَذَا الْأَمْرِ فِي  
 هَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ ، مَعَ أَنَّ الْيَوْمَ يَوْمٌ عِيدٌ وَتَهْنِئَةٌ ، لَا يَوْمٌ لَوْمٍ  
 وَنَصِيحَةٍ . . قَالَ الشَّيْخُ لِتَلْمِيذِهِ : « إِنِّي رَأَيْتُ الْمَلِكَ فِي هَذَا  
 الْيَوْمِ ، فِي عَظْمَةٍ تَامَّةٍ ، فَخِفتُ عَلَيْهِ مِنْ دَاءِ الْكِبَرِ وَالرَّهْوِ  
 بِالنَّفْسِ ، فَيَنْسَى بِسَبَبِ ذَلِكَ ، جَلَالَ اللَّهِ وَعَظَمَتَهُ ، فَيُسِيءُ إِلَى  
 نَفْسِهِ دُونَ وَعْيٍ ، وَيَرْتَكِبُهُ الْفُرُورُ دُونَ فِطْنَةٍ ، فَقَسَوْتُ فِي  
 مُخَاطَبَتِهِ لِأَكْسَرِ نَفْسَهُ ، وَأَضْعَفِ حَدَّةَ غُرُورِهِ ، وَأُعِيدَهُ مُرْغَمًا  
 إِلَى فَضِيلَةِ التَّوَاضِعِ ، وَخُصُوصًا أَمَامَ أَمْرَائِهِ وَجُنْدِهِ » .

قَالَ تَلْمِيذُهُ : « وَلَكِنْ كَيْفَ اجْتَرَأْتَ يَا سَيِّدِي عَلَى  
 مُخَاطَبَتِهِ ، وَهُوَ فِي كَامِلِ أَهْتِهِ وَهَيْبَتِهِ ، وَمَعَهُ سِلَاحُهُ ، وَحَوْلُهُ  
 حَرَسُهُ وَجُنُودُهُ ؟ !

فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ وَقَالَ لِتَلْمِيذِهِ : « وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ لَقَدْ

اسْتَحْضَرْتُ فِي نَفْسِي حِينَذَلِكَ هَيْبَةَ اللَّهِ وَعَظَمَتَهُ وَجَلَالَهُ. سُبْحَانَهُ  
 وَتَعَالَى، فَبَدَأَ السُّلْطَانُ صَنِيلًا فِي عَيْنِي كَأَنَّهُ قَطُّ صَغِيرٌ ...  
 وَفِي السَّنِينَ الَّتِي عَاشَ فِيهَا الشَّيْخُ «عِزُّ الدِّينِ»، وَقَعَتْ  
 حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ قَاسِيَةٌ بَيْنَ أُمَّمٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِي أَوَاسِطِ آسِيَا  
 وَبِلَادِهَا الْغَرَبِيَّةِ. وَكَانَ مِنْ تَتَائِجِ هَذِهِ الْحُرُوبِ، تَيْتِيمُ  
 الْأَطْفَالِ، وَتَشْرِيدُ الْجَوَارِي، وَتَشْتِيتُ الْأَسْرِ، وَهَجْرُ  
 الْأَوْطَانِ، وَفَقْدُ الْأَمْوَالِ، وَانْتِشَارُ الْمَجَاعَاتِ وَالْأَوْبَاءِ  
 الْفَتَّاكَةِ. فَكَانَتْ هَذِهِ الظُّرُوفُ فُرْصَةً حَسَنَةً وَمُنَاسَبَةً  
 مُوَاتِيَةً، انْتَهَزَهَا تِجَّارُ الرَّبِيقِ الَّذِينَ يَخْتَطِفُونَ الْأَطْفَالَ التَّاهِيَةَ  
 وَالْجَوَارِيَ الضَّالَّةَ، أَوْ يَجْمَعُونَهُمْ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ مِنَ الْوَسَائِلِ،  
 ثُمَّ يَقْرُونَهُمْ مِنْ بِلَادِهِمُ الْأَصْلِيَّةِ، إِلَى بِلَادٍ أُخْرَى بَعِيدَةٍ،  
 فَيَعْرِضُونَهُمْ فِي أَسْوَاقِهَا، وَيَبِيعُونَهُمْ بِيَعِ السَّلْعِ لِمَنْ يَتَنَبَّي  
 الشَّرَاءَ، وَيَرْتَبِحُونَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ مَالًا وَفِيرًا.  
 وَكَانَ فِي مِصْرَ أَسْوَاقٌ خَاصَّةٌ يُبَاعُ فِيهَا الرَّبِيقُ، وَتُعْرَضُ  
 فِيهَا هَذِهِ الْبَضَائِعُ الْبَشَرِيَّةُ، فِي تِلْكَ السَّنِينَ الْبَعِيدَةِ.

وَقَدْ أَقْبَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ، عَلَى شِرَاءِ  
هُؤُلَاءِ الْغِلْمَانِ وَالْجَوَارِي، وَاقْتِنَائِهِمْ. كُلٌّ مِنْهُمْ بِحَسَبِ مَامَعَهُ  
مِنَ الثُّقُودِ، وَبِمَقْدَارِ رَغْبَتِهِ فِي الشِّرَاءِ. يَدْفَعُونَ الْمِائَةَ  
وَالْمِائَتَيْنِ، أَوْ الْأَلْفَ وَالْأَلْفَيْنِ، مَمْنًا لِحَارِبَةٍ أَوْ غُلامٍ.  
وَيَخْتَلِفُ الثَّمَنُ بِاخْتِلَافِ مَا تَمْتَّازُ بِهِ هَذِهِ الْبَضَائِعُ مِنْ  
الْجَمَالِ وَالذِّكَاةِ . . . وَأَطْلَقُوا عَلَيْهِمْ اسْمَ « الْمَمَالِكِ »  
أَوْ « الْأَرْقَاءِ ». وَكَانَ الْمُشْتَرُونَ يَتَّخِذُونَهُمْ أَعْوَانًا لَهُمْ فِي  
حَيَاتِهِمُ الْمَرْيُوتَةَ، أَوْ يَنْتَفِعُونَ بِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمُ الْآخَرَى،  
حَسَبَ الْكِفَايَاتِ وَالظَّرُوفِ.

وَمِنْ عَجَائِبِ الْأُمُورِ وَغَرَائِبِ الْمَقْدُورِ، أَنَّ الْمَلِكَ  
الصَّالِحَ الْمَذْكُورَ، رَأَى أَنَّ يَشْتَرِي لِنَفْسِهِ عَدَدًا كَبِيرًا مِنْ  
هُؤُلَاءِ الْمَمَالِكِ. فَاشْتَرَى نَحْوَ أَلْفِ مَمْلُوكٍ مِنْ غِلْمَانِ الْأَتْرَاكِ،  
وَكَانُوا صِغَارَ السَّنِّ، لَهُمْ وُجُوهُ حَسَنَةٌ وَسِيمَةٌ، وَقُدُودٌ مُعْتَدِلَةٌ  
مُسْتَقِيمَةٌ. وَبَنَى لَهُمْ مَعْسَكَرًا عَظِيمًا فِي جَزِيرَةِ الرُّوضَةِ،  
فَعَرَفُوا بَيْنَ النَّاسِ، بِالْمَمَالِكِ الْبَحْرِيَّةِ، أَوْ الصَّالِحِيَّةِ نِسْبَةً

إِلَى سَيِّدِهِمْ وَمَالِكِهِمُ الْمَلِكِ الصَّالِحِ أَيُّوبَ .  
 وَقَدْ اعْتَنَى بِهِمُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ وَعَلَّمَهُمُ الْفُرُوسِيَّةَ ، وَعَوَّدَهُمُ  
 الشَّجَاعَةَ ، وَدَرَّبَهُمُ تَدْرِيحًا عَسْكَرِيًّا . فَلَمَّا اتَّمَوْا تَقَاتَمَ صَارَتْ  
 أَجْسَامُهُمْ قَوِيَّةً ، وَعُقُولُهُمْ كَبِيرَةً ، وَحِيلَتُهُمْ وَاسِعَةً ، وَشَجَاعَتُهُمْ  
 يُضْرَبُ بِهَا الْأَمْثَالُ فِي الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ .

فَاتَّخَذَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ مِنْهُمْ حَرَسًا وَجُنُودًا ، وَصَارُوا  
 يَحْمُونُهُ مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَيُحَافِظُونَ عَلَيْهِ وَعَلَى مُلْكِهِ الْعَظِيمِ ،  
 وَاشْتَرَكُوا مَعَهُ فِي بَعْضِ الْحُرُوبِ ، فَأَظْهَرُوا شَجَاعَةً فَائِزَةً  
 وَقُوَّةَ خَارِقَةً ، وَرَدُّوا أَعْدَاءَ مِصْرَ عَنهَا ، وَهَزَمُوهُمْ شَرَّ هَزِيمَةٍ .  
 وَكَانَ كُلُّ مَمْلُوكٍ مِنْهُمْ إِذَا أَظْهَرَ شَجَاعَةً نَادِرَةً ، وَبَدَتْ  
 مَوَاهِبُهُ قَوِيَّةً ، وَأَبْدَى تَفَوُّقًا فِي الْحُرُوبِ ، وَامْتِيَازًا يَدُلُّ عَلَى  
 مَهَارَتِهِ وَصَلَابَةِ قَلْبِهِ ، أَعْتَقَهُ الْمَلِكُ وَأَعْطَاهُ لِقَبًا مِنَ الْقَابِ  
 الْإِمَارَةِ ، فَيَصِيرُ أَمِيرًا مِنْ أَمْرَاءِ الدَّوْلَةِ .

وَأَهْمٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، أَنَّهُ يُصْبِحُ حُرًّا ، لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ  
 أَنْ يَبِيعَهُ ، وَلَا يَشْتَرِيَهُ ، وَيَسْتَطِيعُ هُوَ أَنْ يَبِيعَ وَيَشْتَرِيَ ،

وَيَرْهَنَ وَيُوجِّرُ، وَيَتَزَوَّجَ وَيُطَلِّقَ، وَيَتَّفِقَ مَعَ مَنْ يَشَاءُ عَلَى مَا يَشَاءُ. وَلَكِنَّهُ قَبْلَ الْعِتْقِ يَكُونُ مَشْلُوبَ التَّصْرُفِ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْضِيَ أَمْرًا إِلَّا بِإِذْنِ مَنْ سَيِّدِهِ.

ثُمَّ مَاتَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ أَيُّوبُ، فَاسْتَطَاعَ عَدَدٌ مِنْ كِبَارِ أَمْرَاءِ دَوْلَتِهِ — وَهُمْ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَرْقَاءَهُ وَمَمَالِكِهِ — أَنْ يَسْتَوْلُوا عَلَى الْمَلِكِ، وَيَسْتَأْتِرُوا بِهِ لِأَنْفُسِهِمْ. وَأَخْتَارُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ جَعَلُوهُ سُلْطَانًا عَلَى الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ، مَكَانَ سَيِّدِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ؛ وَظَلُّوا كُلَّمَا خَلَا الْعَرْشُ مِنْ مَلِكٍ، يَخْتَارُونَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَاحِدًا آخَرَ يَحُلُّ مَحَلَّهُ، وَهَكَذَا.

وَهَكَذَا أَيْضًا أَصْبَحَ هَوْلَاءِ الْمَمَالِكِ حُكَّامًا عَلَى الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ، يَحْكُمُونَهَا كَيْفَ شَاءَ هَوَاهُمْ، وَصَارَتِ الْبِلَادُ وَأَهْلُهَا غَنِيمَةً لَهُمْ يَقْتَسِمُونَهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَيَنْعَمُونَ بِخَيْرِهَا وَتَمَرِّهَا دُونَ سُكَّانِهَا. وَقَوِيَّتْ شَوْكَةُ الْمَمَالِكِ، وَزَادَتْ هَيْبَتُهُمْ وَاتَّسَعَتْ دَوْلَتُهُمْ وَاسْتَحْوَذُوا عَلَى مَرَاقِقِ الْبِلَادِ، وَكَانَ كُلُّ مَلِكٍ أَوْ أَمِيرٍ يَسْتَكْبِرُ مِنْ شِرَاءِ الْمَمَالِكِ الْجُدُدِ،

وَيَتَّخِذُونَ مِنْهُمْ جُنُودًا يَحْمُونَ مُلْكَهُمْ وَيَحْفَظُونَ دَوْلَتَهُمْ ،  
وَيَحْرُسُونَ الْبِلَادَ ، وَيَدْفَعُونَ عَنْهَا أَعْدَاءَهَا . فَكَانُوا بِذَلِكَ  
الطَّبَقَةَ الْحَاكِمَةَ دُونَ سِوَاهَا مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ .

أَمَّا الشَّيْخُ « عَزَّ الدِّينَ » فَإِنَّهُ ظَلَّ لَهُ نُفُودُهُ الْقَدِيمُ بَيْنَ  
جَمَاهِيرِ الشَّعْبِ ، وَظَلَّ لَهُ تَأْيِيدُهُ فِيهِمْ ، وَاسْتَمَرَ - كَمَا هِيَ عَادَتُهُ -  
لِسَانًا لِلْحَقِّ وَحَامِيًا لِلْعَدْلِ .

لِذَلِكَ كَانَ يَتَقَدَّمُ بَيْنَ الْآنِ وَالْآنِ ، إِلَى سُلْطَانِ الْمَمَالِكِ أَوْ  
أُمَرَائِهِمْ ، فَيَنْصَحُ الْمُسِيءَ مِنْهُمْ وَيَرْجُرُهُ ، وَيَعْطُ الظَّالِمَ وَيَهْرُهُ ،  
وَكَثِيرًا مَا كَانُوا يَسْتَمْعُونَ لِنُصْحِهِ ، وَيَسْتَجِيبُونَ لِرِوَعِظِهِ .

وَظَلَّ الشَّيْخُ كَمَا هُوَ مُتَّصِرًا فِي شُؤْنِ الْقَضَاءِ ، وَمُهَيِّمًا  
عَلَى بَيْتِ الْمَالِ ، وَحَرِيصًا عَلَى حَقِّ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ ، لَا يُقْصَرُ  
فِي جَمْعِ مَالٍ ، وَلَا يَتَغَاضَى عَنْ مُسْتَحِقِّ ، وَلَا يُسْرِفُ فِي الْإِنْفَاقِ .





وَيَنِمَا كَانَ الشَّيْخُ يَوْمًا يَنْظُرُ فِي أَوْزَاقِ بَيْتِ الْمَالِ ،  
إِذْ تَبَيَّنَ لَهُ مِنْهَا أَنَّ نَائِبَ السُّلْطَانِ ، وَأَحَدَ أَمْرَاءِ الدَّوْلَةِ ،  
لَا يَزَالَانِ عَبْدَيْنِ رَقِيقَيْنِ ، وَلَمْ يَنْبُتْ لَهُ أَنَّ السُّلْطَانَ الَّذِي كَانَ  
يَمْلِكُهُمَا مِنْ قَبْلُ ، قَدْ أَعْتَقَهُمَا . وَبِذَلِكَ يَثُولُ مَلِكُهُمَا إِلَى  
بَيْتِ الْمَالِ . وَيُعْتَبِرَانِ حَقًّا مِنْ حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا يَنْبَغِي  
لَهُمَا أَنْ يَتَّصِرَا فِي أَمْرٍ ، وَلَا أَنْ يَلِيَا أَيَّ مَنْصِبٍ مِنْ مَنْاصِبِ  
الدَّوْلَةِ . وَتَوَّأَ أَرْسَلَ الشَّيْخُ رُسُلَهُ إِلَى هَذَيْنِ الْأَمِيرَيْنِ ،  
وَعَرَّفَهُمَا أَنَّهُمَا مَلِكٌ لِبَيْتِ الْمُسْلِمِينَ ، لِأَنَّهُمَا لَيْسَا مِنَ الْعِتْقَاءِ .  
وَيَنْبَغِي لَهُمَا أَنْ يُسَلِّمَا أَنْفُسَهُمَا لِصَاحِبِ بَيْتِ الْمَالِ ، لِيَتَّصِرَا  
فِيهِمَا وَفَقَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ مَصْلَحَةُ الْمُسْلِمِينَ .

فَمَا كَانَ مِنَ الْأَمِيرَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ إِلَّا أَنْ سَخِرَا بِالشَّيْخِ  
وَتَهَكَّمَا بِرُسُلِهِ تَهَكُّمًا مُزْرِيًا . وَاحْتَقَرَا الشَّيْخَ وَأَفْكَارَهُ ،  
وَلَمْ يَهْتَمَّا بِأَمْرِهِ ، وَطَرَدَا رُسُلَهُ شَرًّا طَرْدَةً .

فَمَادَ رَسُولُ الشَّيْخِ إِلَى الشَّيْخِ ، وَقَصَّوْا عَلَيْهِ مَا لَقَوْهُ مِنْ  
هَوَانٍ وَامْتِهَانٍ مِنَ الْأَمِيرَيْنِ . فَمَا كَانَ مِنَ الشَّيْخِ إِلَّا أَنَّهُ  
أَعْلَنَ النَّاسَ بِأَمْرِهِمَا . وَنَادَى مُنَادِيَهُ بَيْنَ الْجَمَاهِيرِ أَنَّ هَذَيْنِ  
الْأَمِيرَيْنِ لَا يَزَالَانِ عَبْدَيْنِ رَقِيقَيْنِ ، وَلَمْ يَثْبُتْ عِنْدَ الشَّيْخِ  
عَقْفُهُمَا ، وَأَنَّهُمَا بِذَلِكَ مَمْلُوكَانِ لِبَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنَّ كُلَّ  
نَصْرَفٍ لَهُمَا بَاطِلٌ لَا يُقْرَأُ الشَّرْعُ ، وَلَيْسَ لَهُمَا أَنْ يَلِيَا أَمْرًا  
مِنْ أُمُورِ الدَّوْلَةِ ، وَلَيْسَ لَهُمَا أَنْ يَتَصَرَّفَا فِي أُمُورِهِمَا الْخَاصَّةِ كَمَا  
يَتَصَرَّفُ أَحْرَارُ الرِّجَالِ ، إِلَّا إِذَا أذِنَ لَهُمَا صَاحِبُ بَيْتِ الْمَالِ ،  
فَلَا يَصِحُّ مِنْهُمَا بَيْعٌ وَلَا شِرَاءٌ ، وَلَا رَهْنٌ وَلَا إِجَارَةٌ ، وَلَا تَزْوِجٌ  
وَلَا طَلَاقٌ ، وَلَا نَحْوُ ذَلِكَ إِلَّا بِإِذْنِ مَنْ صَاحِبِ بَيْتِ الْمَالِ ...  
وَبَلَغَ الْخَبْرُ مَسَامِعَ الْأَمِيرَيْنِ ، فَازْدَادَ هُزُوهُمَا بِالشَّيْخِ ،  
وَسُخْرِيَّتُهُمَا مِنْهُ ، وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يَكْتُمَا تَعَجُّبَهُمَا مِنْ جُرْأَتِهِ عَلَيْهِمَا  
وَوَصْفَاهُ بِالْجَهْلِ وَالْحِمَاقَةِ ، وَدَهْشَانِهِ مِنْهُ كَيْفَ سَوَّغَ لِنَفْسِهِ أَنْ  
يَدْعِيَ هَذِهِ الدَّعْوَى ، وَأَنْ يَتَعَرَّضَ لَهُمَا فِي أُمُورِهِمَا الْخَاصَّةِ  
وَيَمْنَعَهُمَا مِنْهَا ، وَيُنْكِرَ عَلَيْهِمَا الْحُرِّيَّةَ ، وَهُمَا مِنْ حُكَّامِ

الْبِلَادِ وَأَمْرَائِهَا الَّذِينَ يَحْكُمُونَهَا بِسُؤْفِهِمْ ، وَيَسْحُونَ الْحُرِّيَّةَ  
مَنْ يَشَاءُونَ وَيَحْرِمُونَهَا مَنْ يَشَاءُونَ . .

وَزَلَّ الْأَمِيرَانِ لَا يُقِيمَانِ وَزَنَا لِدَعْوَى الشَّيْخِ وَكَلَامِهِ وَرَأْيِهِ .  
وَلَكِنَّهُمَا بَعْدَ قَلِيلٍ ، وَجَدَا أَنَّ النَّاسَ قَدْ تَوَقَّفُوا عَنِ التَّعَامُلِ  
مَعَهُمَا أَوْ مَعَ أَتْبَاعِهِمَا خُضُوعًا لِأَمْرِ الشَّيْخِ وَطَاعَةً لِرَأْيِهِ . فَلَمْ يَبْدُ  
أَحَدٌ مِنْهُمَا يَسْتَطِيعُ الْبَيْعَ وَلَا الشِّرَاءَ ، وَلَا أَىَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ  
التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ ، إِلَّا إِذَا اسْتَعْمَلَا الْقُوَّةَ وَالْقَسْوَةَ وَالْقَهْرَ . وَأَخَذَ  
النَّاسُ لِذَلِكَ يَصِفُونَهُمَا بِاِغْتِصَابِ الْحُقُوقِ وَأَكْلِ الْأَمْوَالِ بِالْبَاطِلِ .  
فَرَأَيَا بَعْدَ قَلِيلٍ أَنَّ أَعْمَالَهُمَا وَمَصَالِحَهُمَا قَدْ تَعَطَّلَتْ ، وَأَنَّ  
تَصَرُّفَاتِهِمَا أَصْبَحَتْ مَوْقُوفَةً ، وَقَاسِيَا صُعُوبَةً وَحَرَجًا كَلَّمَا أَرَادَا  
أَنْ يَتَعَامَلَا مَعَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ .

فَنَازَعَتْهُمَا نَائِبُ السُّلْطَانَةِ اهْتِجَابًا شَدِيدًا ، وَمَلَكَهُ النُّضْبُ ،  
وَأَنْفَجَرَ بُرْهُ كَانَ حِقْدِهِ عَلَى هَذَا الشَّيْخِ الْجَرِيءِ الَّذِي مَنَعَهُ أَنْ  
يَتَصَرَّفَ فِي شُؤْنِهِ الْخَاصَّةِ ، مَعَ أَنَّهُ يُحْكِمُ الدَّوْلَةَ بِأَجْمَعِهَا .

وَأَقْسَمَ قَسَمًا عَظِيمًا لِيَشْجَنَ رَأْسَ الشَّيْخِ بِسَيْفِهِ، وَيَقْدَهُ نِصْفَيْنِ  
لِيَكُونَ عَيْرَةً لِّلْمُعْتَبِرِينَ، وَ لِيُلْقَى عَلَيْهِ وَعَلَى أَمْثَالِهِ مِنَ الْحَقِّ  
دَرْسًا قَاسِيًا فِي طَرِيقَةِ مُعَامَلَةِ الْأُمَرَاءِ وَالْحُكَّامِ الْعُظَمَاءِ . . .

وَفِي يَوْمٍ تَحَجَّبَتْ شَمْسُهُ، وَكَفَهَرَ جَوْهُ، وَتَلَبَّدَتْ بِالْغَيْومِ  
سَمَاوُهُ، وَبَدَأَ وَجْهُهُ عَابِسًا كَاشِرًا كَوَجْهِ نَائِبِ السُّلْطَنَةِ، بَكَرَ  
هَذَا النَّائِبُ فَارْتَدَى تَوْبَ الْحَرْبِ وَتَزَيَّا نَزِيَّ الْقِتَالِ، وَوَضَعَ  
عَلَى رَأْسِهِ خُوذَةً، وَفَوْقَ صَدْرِهِ دِرْعًا، وَفِي يَدِهِ سَيْفًا، وَاعْتَلَى  
صَهْوَةً فَرَسِهِ، وَالغَضْبُ يُتَطَايَرُ شَرُّهُ مِنْ وَجْهِهِ، وَالْحِقْدُ يَنْلِي  
فِي صَدْرِهِ، وَسَارَ يَنْهَبُ بِفَرَسِهِ الْأَرْضَ نَهْبًا، وَيَقْطَعُهَا وَثْبًا،  
كَأَنَّهُ ذَاهِبٌ إِلَى لِقَاءِ عَدُوِّ مُجَاهِدٍ مُجَالِدٍ، وَخَصْمٍ مُكَافِحٍ  
مُعَانِدٍ، وَاتَّجَهَ إِلَى دَارِ الشَّيْخِ عِزِّ الدِّينِ .

وَصَلَ النَّائِبُ إِلَى عَتَبَةِ الدَّارِ، فَطَرَقَ بِأَبْهَا طَرَفًا عَنِيفًا .  
سَمِعَ أَهْلُ الدَّارِ هَذَا الطَّرْقَ الْعَنِيفَ، فَتَوَجَّسُوا خِيفَةً،  
وَشَاعَ الْقَلْقُ وَالِاضْطِرَابُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا الشَّيْخَ فَقَدْ كَانَ هَادِتًا  
كَمَا دَتِهِ، رَزِينًا وَقُورًا جَلِيلًا كَمَا يَبْدُو دَائِمًا . وَذَهَبَ ابْنُ

الشَّيْخِ إِلَى النَّافِذَةِ وَهُوَ يَقُولُ: «مَنْ الطَّارِقُ»؟!  
 وَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ نَائِبُ السُّلْطَنَةِ، وَأَنَّهُ هُوَ ذَلِكَ الزَّائِرُ المَرُوعُ،  
 وَالضَّيْفُ المَفْرُوعُ، وَأَنَّهُ جَاءَ - وَلَا بُدَّ - يَطْلُبُ إِلَى أَبِيهِ أَمْرًا  
 خَطِيرًا. وَهَذَا هُوَ ذَا يَتَطَايَرُ شَرَرُ غَضَبِهِ، وَيَنْغِي مِرْجَلُ حِقْدِهِ.  
 وَأَوْجَسَ الابْنُ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً عَلَى أَبِيهِ، وَخَشِيَ عَلَيْهِ الأَدَى  
 وَالهَلَاكَ مِنْ يَدِ هَذَا الطَّائِغَةِ. وَمَعَ أَنَّهُ يَعْرِفُ الشَّجَاعَةَ فِي  
 أَبِيهِ، وَيَعْلَمُ مَبْلَغَ جُرْأَتِهِ وَصَلَابَتِهِ فِي الحَقِّ، لَمْ يَسْتَطِعْ  
 أَنْ يُخْفِيَ عَلَيْهِ هَوْلَ المَوْقِفِ، وَمَا أَدَّتْ إِلَيْهِ صَلَابَتُهُ. وَأَخْبَرَهُ  
 الأَمْرَ وَأَخَذَ يُبَيِّنُ لَهُ عَاقِبَةَ تَمَسُّكِه بِالحَقِّ، وَحِرْصِهِ عَلَى مَالِ  
 المُسْلِمِينَ فِي زَمَانِ فَاضِ بِالظُّلْمِ وَطُغْيَانِ، وَامْتِلَاءِ بِالأَوَانِ مِنَ  
 النِّفَاقِ وَالمَصَانَعَةِ الَّتِي تَحْسَبُ دَهَاءً وَسِيَّاسَةً.  
 وَعَرَفَ الشَّيْخُ عِزَّ الدِّينِ شَخْصِيَّةَ زَائِرِهِ، فَأَخَذَ طَرِيقَهُ  
 إِلَى لِقَائِهِ بِالبَابِ. وَلَكِنَّ ابْنَهُ مَنَعَهُ قَائِلًا: «أَخْشَى عَلَيْكَ  
 يَا أَبِي مِنَ المَوْتِ، فَإِنَّ الأَمِيرَ غَاضِبٌ مُهْتَابٌ، وَإِنِّي لَأَتَوَقَّعُ  
 مِنْهُ شَرًّا، وَقَدْ أَمْسَكَ بِمِقْبَضِ سَيْفِهِ اسْتِعْدَادًا لِأَمْرِ دَبَّرَهُ».

فَقَالَ الشَّيْخُ لِابْنِهِ : « يَا بُنَيَّ ! إِنَّ أَبَاكَ لَأَهْوَنُ مِنْ أَنْ  
يَمُوتَ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ . فَإِنْ قَتَلَنِي مِتُّ شَهِيدًا . وَإِنْ تَرَكَتَنِي  
بَلَغْتَ مِنْهُ مَا أُرِيدُ وَرَدَدْتَ مَالَ الْمُسْلِمِينَ . وَعَلَّمْتُهُ دَرْسًا فِي  
التَّوَّاضُعِ لِلَّهِ ، وَمُعَالَجَةِ الْأُمُورِ بِالْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ . » ثُمَّ نَزَلَ .  
فَتَحَّ الشَّيْخُ الْبَابَ ، وَرَحَّبَ بِضَيْفِهِ الْكَبِيرِ ... وَهُنَا  
اسْتَلَّ الْأَمِيرُ سَيْفَهُ ، وَرَفَعَهُ فِي الْهَوَاءِ بِيَدِهِ فِي عَجَلَةٍ وَسُرْعَةٍ ،  
وَأَرَادَ أَنْ يَهْوِيَ بِهِ عَلَى رَأْسِ الشَّيْخِ الْجَلِيلِ ...  
هُنَا يَبَسَتْ يَدُهُ فِي الْهَوَاءِ وَفِيهَا سَيْفُهَا . وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ  
يُنْزِلَهَا إِذْ مَلَكَتْهُ الْهَيْبَةُ وَالرَّهْبَةُ مِنَ الشَّيْخِ وَجَلَالِهِ . وَأَعَادَ  
اللَّهُ إِلَيْهِ صَمِيرَهُ جَاءً ، فَأَنْبَهُ وَوَجَّهَهُ ، وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ كَيْفَ  
يَقْتُلُ شَيْخًا تَقِيًّا جَلِيلًا بِسَبَبِ دِفَاعِهِ عَنِ الْحَقِّ ، وَجِرْصِهِ عَلَى  
مَالِ الْمُسْلِمِينَ . . ؟ وَهَكَذَا كَسَرَتْ قُوَّةَ الْحَقِّ رُغُونَةَ  
الْبَاطِلِ ، وَسَيَّطَرَ خَوْفُ اللَّهِ عَلَى النَّفْسِ فَأَعَادَهَا إِلَى فَضِيلَةِ  
التَّوَّاضُعِ . وَسَفَرَتِ الْعَدَالَةُ فَهَزَمَتِ الْكِبْرِيَاءَ ، وَتَرَاجَعَ  
الظَّالِمُ مُقِرًّا بِظُلْمِهِ ، وَتَقَهَّرَ الْمُجْرِمُ مُعْتَرِفًا بِجُرْمِهِ ...

وَتَقَدَّمَ الْأَمِيرُ إِلَى الشَّيْخِ ذَلِيلَ النَّفْسِ كَسِيرِ الْخَاطِرِ يُقْبَلُ  
بِيَدِهِ وَيَطْلُبُ مِنْهُ الصَّفْحَ وَالْمَغْفِرَةَ . . . فَقَعَا عَنْهُ .

ثُمَّ سَأَلَهُ الْأَمِيرُ : مَاذَا يُرِيدُ بِهِ وَبِزَمِيلِهِ ؟

فَقَالَ الشَّيْخُ : « أَيْعُكُمَا فِي السُّوقِ ، وَأَقْبِضُ ثَمَنَكُمَا  
وَأُضِيفُهُ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ . . . »

فَقَالَ الْأَمِيرُ : « كَمَا تَشَاءُ يَا سَيِّدِي ! » وَقَفَلَ رَاجِعًا إِلَى دَارِهِ .  
وَفِي يَوْمٍ بَدَتْ شَمْسُهُ ، وَتَكَشَفَ جَوْهُ ، وَصَفَتْ سَمَاوُهُ ،  
وَأَسْفَرَ وَجْهَهُ ضَاحِكًا مُسْتَبْشِرًا ، بَكَرَ الشَّيْخُ « عِزُّ الدِّينِ »  
إِلَى إِحْدَى الْأَسْوَاقِ ، حَيْثُ نُصِبَ لِلْأَمِيرَيْنِ رِوَاقٌ وَاسِعٌ .  
وَحَضَرَ فِي أَكْمَلِ زِينَةٍ ، وَأَتَمِّ حَلِيَّةٍ ، وَأَبْهَى مَلْبَسٍ . وَتَجَمَّعَ  
النَّاسُ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ ، يَنْفَرُ جُودًا يَبِيعُ الْأَمِيرَيْنِ  
الْكَبِيرَيْنِ . . . وَالتَفَّ حَوْلَ الْأَمِيرَيْنِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَمْرَاءِ  
وَالْأَحْبَابِ وَالْأَتْبَاعِ . وَجَلَسَ الشَّيْخُ « عِزُّ الدِّينِ » بِجِوَارِهِمَا  
وَأَعْلَنَ افْتِتَاحَ الْمَزَادِ . . . هَذَا الْمَزَادُ التَّارِيخِيُّ الْعَجِيبُ . . .

وَبَدَأَ الْمَزَادُ يَبِيعُ نَائِبِ السُّلْطَنَةِ . . . وَأَخَذَ النَّاسُ يُتَرَايِدُونَ

فِي شِرَائِهِ، وَتَزَاحَمَ أَصْدِقَاؤُهُ فَدَفَعُوا الْمِائَةَ وَالْمِائَتَيْنِ، بَلِ الْأَلْفَ  
وَالْأَلْفَيْنِ، وَالشَّيْخُ لَا يَزْدَادُ إِلَّا رِفْضًا وَإِبَاءً، وَأَخَذَ يُعَالِي فِي  
طَلَبِ الثَّمَنِ حَتَّى بَلَغَ عِدَّةَ آلافٍ مِنَ الدَّنَائِرِ . فَقَبَضَهَا الشَّيْخُ  
وَكَتَبَ لِلْأَمِيرِ وَشَارِيهِ، وَرَقَّةً بِالْبَيْعِ . . .

ثُمَّ بَاعَ الْأَمِيرُ الْآخَرَ، وَغَالَى كَذَلِكَ فِي ثَمَنِهِ، حَتَّى بَلَغَ  
عِدَّةَ آلافٍ أُخْرَى، ثُمَّ أَعْطَاهُ وَأَعْطَى شَارِيهِ وَرَقَّةً بِالْبَيْعِ . . .  
انْفَضَّ الْمَزَادُ بَعْدَ أَنْ تَمَّ بَيْعُ الْأَمِيرَيْنِ، كَمَا أَرَادَ  
الشَّيْخُ . . . ثُمَّ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرِيَاهُمَا أَعْتَقَاهُمَا، فَصَارَا حُرَّيْنِ  
مِثْلَ سَائِرِ أحرَارِ الرَّجَالِ . وَأَعْلَنَ الشَّيْخُ النَّاسَ بِهَذَا الْعِتْقِ  
وَهَذِهِ الْحُرِّيَّةِ وَأَنَّ لِلْأَمِيرَيْنِ الْآنَ أَنْ يَتَصَرَّفَا كَمَا يَشَاءُانِ فِي  
الشُّؤْنِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ . . .

وَعَادَ الشَّيْخُ إِلَى بَيْتِهِ فَرِحًا مَسْرُورًا مُسْتَبْشِرًا لِأَنَّهُ قَضَى  
حَقَّ اللَّهِ، وَضَمَّ مَالًا مُسْتَحَقًّا إِلَى بَيْتِ الْمَالِ .  
وَذَاعَ أَمْرُ الشَّيْخِ بَيْنَ النَّاسِ وَخَلَّتِ الْكُتُبُ قِصَّتَهُ وَعُرِفَ  
بِأَنَّهُ « بَائِعُ الْأَمْرَاءِ » ! . . .